

تمرد على قلمي ولم يطاوعني في كتابة مقال - بناء على طلب الصديق د. إيمان يحيى - عن شخصية المؤرخ العملاق رءوف عباس حين كان لم يزل راقدًا في العناية المركزة بقصر العيني التعليمي.. وكان مصدر هذا التمرد أن مثل هذه الكتابة في هذا الوقت تعتبر من قبيل الفأل السيئ، وكانت أكف الصراعة لا تتوقف الدعاء له من قلوب زملائه وتلاميذه ومحبيه راجين له الشفاء في ظروف لم يكن هذا الشفاء متوقعا بأى حال من الأحوال. وأخيرا حكم القضاء ورحل إلى عالم الأبدية الرجل العظيم الذي لم ولن توفيه حقه صفحات مهما اتسعت وتشعبت وتعمقت رثاء ونعيا له أو تذكيرا بأفضاله وخصائصه. تعرفت على الفقيد منذ ما لا يزيد على أربعة أعوام - والصدافة لا تقاس دائما بمدى الزمنى بقدر عمقها وصفاتها وأن كنت متابعا لحوحا لما تيسر وصوله لى من مؤلفاته المرجعية وكان ذلك بمناسبة الدعوى التي أقيمت عليه والتي جرتها عليه شجاعته وصراحته عن صور الفساد الجامعي، وهى لمحات مما جاء فى كتاب سيرته الذاتية «ومشيناها خطي»، وكانت مناقشات ومرافعات ومذكرات، حيث حكم فيها كلها لصالحه بما يؤكد سلامة موقفه وانحياز الحق معه. وكى نلقى الضوء على هذه الشخصية الفريدة الرائعة النبيلة الجميلة سوف نتخير ثلاثة من مؤلفاته العديدة التى تربو على الأربعين كتابا تأليفاً وتحريراً وترجمة - أولها الحركة العمالية فى مصر بين 1899 حتى 1952 وكان هذا المؤلف باكورة الإنتاج الأكاديمي للراحل وهو فى عمر الخامسة والعشرين، وقد اختار منهج المدرسة الاجتماعية التاريخية والتي يكون التركيز فيها على الجوانب المجتمعية لاسيما الانجذاب إلى قاعدة المجتمع متمثلة فى العمال والفلاحين «أى المنتجين الحقيقيين» وليس الملوك والسلطين وحيلة القصور واللهو، وقد اتسم هذا البحث الرائع بالجدية والرصانة والعمل الميدانى الدعوى، حيث انتقل الباحث إلى مصادر المعلومات قارئا ومناقشا ومستجوبا ما بين الإسكندرية والقاهرة وكفر الزيات، باحثا عن المادة الحية يستقيها من الأحياء ومن الوثائق والرسائل المكتوبة بخط اليد الذى يصعب قراءته واستطاع من خلالها إيضاح الخط الفاصل بين التنظيم الطوائفى القديم والتنظيم النقابى الحديث واضعا فى الاعتبار التغيرات المتلاحقة الجذرية التى بدأت تتشكل ملامحها فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتي كانت محركا فاعلا لنشأة النقابات وبداية مرحلة الاضرابات «الاعتصابات» كخطوة احتجاجية مشروعة، كما لم يغفل نضال العمال للحصول على تشريفات تقنن الحد الأدنى لحقوقهم فى الأجر وساعات العمل وظروف التشغيل.

كل ذلك مرتبط بالتيارات السياسية وضغوطها لاسيما من الحركات السياسية الشيوعية وغيرها، وما استتبع ذلك من تسلط الأمن على حركات العمال.. وأجاد الراحل توظيف الأدوات البحثية المتاحة من مقابلات واطلاع على وثائق وتحليل ما بها من معلومات بروح بحثية رائعة لا تعرف الملل والانحراف عن الموضوعية والانتماء إلى جذور المجتمع المصرى وثانى المؤلفات هو «جماعة النهضة القومية» 1985، حيث وضع الراحل يده بحرفية الباحث القدير المتمكن من أدواته البحثية على لب الفجوة التى سادت فى الفترة المزعومة لليبراليتها من 1923 حتى 1952 ما بين السعى لتحقيق الديمقراطية السياسية وما بين إغفال مفهوم ومتطلبات الديمقراطية الاجتماعية، وهو الأمر الذى كان غائبا أو مغيبا لا فرق نظرا لأن نخب البرجوازية السائدة وقتئذ كانت نظرتها أحادية لصالحها كى تنمى ثروتها دون الاهتمام بمشكلات الفقر وتداعياتها من غيبة عدالة التوزيع فى الثروات والدخول، وفى هذا المناخ المشحون بالتناقضات بزغت «جماعة النهضة القومية» عام 1945 مطالبة بالإصلاح الاجتماعى حفاظا على النظام الليبرالى، وحيث تميزت هذه الجماعة عن غيرها بتقديم برنامج اجتماعى وسياسى متكامل على المستويين الداخلى والخارجى. أما لماذا اخترت هذا المؤلف بالذات وما أشبه الليلة بالبارحة فكان مرد ذلك إلى الحوار الذى جرى خلال إحدى الندوات الجادة الوقورة فى صالونى النديم فى أواخر 2007، وحيث طرحت فكرة إقامة قومية على أساس توافقى تحمل هموم الوطن كتلك التى كتب عنها الراحل عام 1985 ويكون هو مقررهما، أما الكتاب الثالث فهو القنبلة التى تضمنت سيرته الذاتية وعنوانها «ومشيناها خطي» التى اتسمت بالصراحة المطلقة عارضا بلا ترويق أو تزوير جذوره الاجتماعية البسيطة وظروف المعيشة التى نفضها وارتقى من خلال العلم والمثابرة حتى حصل على أعلى الدرجات، ثم تناوله الصريح لعينة من الفساد فى

الجامعات فى التعيينات والترقيات وصور التميز الدينى التى كان يعارضها وخلقت له عداوات غير مبررة، وهو ما دفع من تناولهم قلمه العف الصريح إلى مقاضاته، وحيث انتهت كل هذه الدعاوى إلى الحكم لصالح الراحل العظيم بلا منازع كانت هناك مؤلفات أخرى شارك فيها رءوف عباس نخص منها جهده الجبار فى الإشراف على تحرير السفر الرائع من «مائتا عام على الحملة الفرنسية»، حيث وضعت الأمور فى نصابها الصحيح عن تقييم هذه الحملة التى رأها البعض فاتحة النهضة وجلب النور إلى مصر وتبع ذلك آخر جهوده عن جامعة القاهرة فى مائة عام، حيث تناول جهود الأهالى التى تمخضت عن جامعة هى نافذة العلم لمصر على مدى قرن من الزمان. فى مشاغباتنا مع عمنا الراحل الماركسى العظيم مفيد الشوباشى «والد على وشريف وفاتن وهدى» كان يبشرنا الخمسينيات من القرن الماضى عن توصل علماء الاتحاد السوفيتى إلى دواء يطيل العمر ويقهر الموت.. لو توصلنا إليه قبل رحيل رءوف عباس لاستفدنا منه وعاش معنا حتى الآن يمشى خطوات وخطوات، لقد كان رءوف عباس منتما صادقا للطبقات الكادحة ولم يتصل منها وكان عنيدا صلبا صلابة الجرانيت والفولاذ، وإرادته لا تقهر، وفى ذات الوقت كان رقيقا كنسمة ربيع فوق جدول رقرق فى جنة فيحاء، وكان صبورا صبر أيوب لاسيما فى محنته الأخيرة، حيث كان يتحدث وصوته يتهدج، ولكن مع الأمل عشنا معه حتى فقدها. أقل صور الوفاء للرجل أن تشكل جماعة لأصدقاء رءوف عباس تجمع مؤلفاته وترصد جائزة سنوية باسمه لأفضل الأبحاث التاريخية التى تسير فى خطه المنهجي.

<http://www.al-araby.com/docs/article2142178026.html>